

قوات من الجيش عند مدخل وزارة الدفاع عام 1963



حين قررت الأمم المتحدة في العام 2008 اعتبار 2 تشرين الأول (أكتوبر) من كل عام يوماً عالمياً لللاعنف، التفت العالم إلى أن هذا اليوم يصادف عيد ميلاد غاندي، فيلسوف المقاومة السلمية - اللاعنافية، وكان ذلك الإعلان قد صادف مرور 60 عاماً على اغتياله 1948، و40 عاماً على اغتيال مارتن لوتر كينغ 1968 قائد الحركة المدنية الأمريكية المطالبة بالمساواة. وهكذا أصبح مبدأ اللاعناف الفلسفي بقرار الأمم المتحدة عالمياً.

والتقط الفكرة شخصيات لاعنفية عربية ريادية كان لها باع طويل في هذا المجال، فبادرت في العام ذاته لتأسيس جامعة اللاعناف في لبنان والتي أطلقت في العام الذي تلاه، الأمر الذي وضع فلسفة اللاعناف ونشر ثقافته موضوعاً راهناً، ليس في جانبها الأكاديمي فحسب، بل في جانبها الاجتماعي والمدني، بحيث دخلت الساحة الفكرية، كأحدى الفلسفات المعترف بها والتي تمثل مرجعية ذات خلفية بحاجة إلى المزيد من التعمق لتأصيلها، وهو ما وجدت نفسي منخرطاً فيه مع أصدقاء وأحبة وفي مقدمتهم أوغاريت يونان ووليد صليبي وإلهام كلاب ووفاء الضيقة حمزة وموسى فريجي وعصام منصور وانضم إلى مجلس أمناء الجامعة "العالي" عدد من الشخصيات المهمة بينهم من يحمل جائزة نوبل وبمشاركة فاعلة من صديقنا جان ماري مولر وآخرين. وكنت قد هيات نفسي لمثل هذا التحول على مدى يزيد على ربع قرن من الزمان من خلال كتاباتي والعديد من الفعاليات والأنشطة التي نظمتهما حول التسامح والمجتمع المدني وحقوق الإنسان.

2

العنف وفريضة اللاعناف.. شذرات من تجربة شخصية

قوات الإتحاد الكردستاني هاجمتنا بطريقة غادرة ومخادعة بدعم وتواطؤ حكومي

عبد الحسين شعبان



"لقد درست نظرية اللاعناف، ولست بعيداً عن الخلوص إلى أنها تمثل حقيقة، خربة أن يبشر بها بالمثال، لكنها تستلزم عظمة لا أنصف بها"

البيير كامو

بيروت



مصطفى البارزاني متمنياً جواداً وسط أفراد من عائلته في جبال صلاح الدين

تعمق لتأصيلها، وهو ما وجدت نفسي منخرطاً فيه مع أصدقاء وأحبة وفي مقدمتهم أوغاريت يونان ووليد صليبي وإلهام كلاب ووفاء الضيقة حمزة وموسى فريجي وعصام منصور وانضم إلى مجلس أمناء الجامعة "العالي" عدد من الشخصيات المهمة بينهم من يحمل جائزة نوبل وبمشاركة فاعلة من صديقنا جان ماري مولر وآخرين. وكنت قد هيات نفسي لمثل هذا التحول على مدى يزيد على ربع قرن من الزمان من خلال كتاباتي والعديد من الفعاليات والأنشطة التي نظمتهما حول التسامح والمجتمع المدني وحقوق الإنسان.

غالباً ما نجد في الثقافة السائدة في مجتمعاتنا مبررات ووزائع وحجج لاستخدام العنف، والمسؤول الذي يظن حائراً: من المسؤول عن العنف، هل الإنسان، بما يملكه من إرادة ووعي وعقل أم إن الطبيعة البشرية دور في ذلك، إضافة إلى عوامل اجتماعية واقتصادية وثقافية وبيئية ووراثية وغير ذلك؟ وثمة أسئلة من هذا القبيل، هل يمكن تنمية وتطويرها والانتقال بها لتصبح منهاجاً عالمياً وقاعدة فلسفية يمكن تلخيصها في صيغة مختالية؟ وماذا عن الطبيعة الإنسانية: اليس هي عدوانية عنيفة أم أنها تولدت بذلك؟ وثمة أسئلة من هذا القبيل، هل يمكن تنمية وتطويرها والانتقال بها لتصبح منهاجاً عالمياً وقاعدة فلسفية يمكن تلخيصها في صيغة مختالية؟ وماذا عن الطبيعة الإنسانية: اليس هي عدوانية عنيفة أم أنها تولدت بذلك؟ وثمة أسئلة من هذا القبيل، هل يمكن تنمية وتطويرها والانتقال بها لتصبح منهاجاً عالمياً وقاعدة فلسفية يمكن تلخيصها في صيغة مختالية؟ وماذا عن الطبيعة الإنسانية: اليس هي عدوانية عنيفة أم أنها تولدت بذلك؟

واضح أنه بالقرب من قضاء "خانة" داخل الأراضي الإيرانية. وكان نوع السلاح الذي يخصص للقاد أو الكوادر المقدمة هو دابل معقول، فقلت له لم أتعلم صنيعة الاحترام والهيبة التي تفرسها العلاقة بالفلاحين وأبناء القرى التي نمر عليها أو يبرون علينا، وقد بقيت رافضاً حمل السلاح، طيلة فترة وجودي في قوات الانصار، بما فيها خلال أحداث المعارك التي راح ضحيتها نحو 60 نصيراً شيعياً، غالبيتهم الساخنة من أصدقائي أو معارفي، لأنني كنت أشعر أنني لم "أخلف" لهذه المهمة. وقد كانت تلك إحدى نقاط التحول في حياتي نحو العمل اللاعنفي والحقوقية والإيمان بقيم التسامح وفريضة اللاعناف.

يوم اللاعناف العالمي

حين قررت الأمم المتحدة في العام 2008 اعتبار 2 تشرين الأول (أكتوبر) من كل عام يوماً عالمياً لللاعنف، التفت العالم إلى أن هذا اليوم يصادف عيد ميلاد غاندي، فيلسوف المقاومة السلمية - اللاعنافية، وكان ذلك الإعلان قد صادف مرور 60 عاماً على اغتياله 1948، و40 عاماً على اغتيال مارتن لوتر كينغ 1968 قائد الحركة المدنية الأمريكية المطالبة بالمساواة. وهكذا أصبح مبدأ اللاعناف الفلسفي بقرار الأمم المتحدة عالمياً.

والتقط الفكرة شخصيات لاعنفية عربية ريادية كان لها باع طويل في هذا المجال، فبادرت في العام ذاته لتأسيس جامعة اللاعناف في لبنان والتي أطلقت في العام الذي تلاه، الأمر الذي وضع فلسفة اللاعناف ونشر ثقافته موضوعاً راهناً، ليس في جانبها الأكاديمي فحسب، بل في جانبها الاجتماعي والمدني، بحيث دخلت الساحة الفكرية، كأحدى الفلسفات المعترف بها والتي تمثل مرجعية ذات خلفية بحاجة إلى المزيد من

بيوت الأعمام والأخوال جميعهم. ولذلك حين بدأ وعسبي الأول بالتكون كنت ناسراً من العنف بصورة عفوية من دون فلسفة أو وعي. وحين التحقت بفصائل الانصار الشيوعية لم يكن في بالي إطلاقاً أن يكون لدي سلاح شخصي أو أنه يجب علي حمله، فلذلك لم يكن بالنسبة لي سوى مناسبة لإتقاط صورة تذكارية ليس أكثر من ذلك، لأن مهمتي جريده وإذاعة، ملتما كنت مشغلاً في قضايا التشكيك في القضاء والمحاكمات والعامل المركزي في ذلك هو أن أقتل أكثر من مرة "إثني" أتحنى لهم - مظلماً كان هناك بعض المختاتين.

ثم مزاجته على الرغم من أننا كنا في وضع مرزي جداً وإن وضعي الصحي لم يكن حينذاك على ما يرام، بقولي ونحن ننسحب بعد قرار بإفراج موقعا في بشتان، قرار الممسدس تفجير علي حمله، لاسيما حين توجهنا لعبور جبل قنديل الشهير والذي يبلغ ارتفاعه 7800 قدماً وتكسوه الثلوج شتاءً وصيفاً، باستثناء شهري تموز (أب) وبوليسو وأغسطس، حيث سرتنا على الإقدام أكثر من 32 ساعة، حتى وصلنا أول موقع للحزب الديمقراطي الكردستاني،

وحقوقه، ورقة للمقايسة بزعم المستقل، أي مقايضة التنمية وحقوق الإنسان وخياراته الحرة، بأهداف أيديولوجية شمولية ووعد مستقبلي.

وحسب البيير كامو إن الدفاع عن الحقيقة بواسطة العنف، هو البدء بإنكارها أو إن يفترض الدفاع عن القديم النبيلة احترامها أولاً وقبل كل شيء لا انتهاكها بزعم توفير فرصة مستقبلية لاحتزامها، أي إن وسيلة النضال ينبغي أن تكون عادلة ونبيلة بالانسجام مع الهدف العادل والنبيل، حينذاك سيكون مثل هذا التماهي بين الوسيلة والغاية أساساً في الانتصار الحقيقي، أي انتصار إنسانية الإنسان.

كنت أتجرع بمرارة أفكار العنف التي تحسوم حولي وأجد في نفسي راحة وطمانينة وراحة، وقد يكون بحكم تكويني العائلي وبيئتي الأولى المتسامحة والمسألة، لست بعيداً عنها، وأقتر هنا فضل والذي وعمامي اعطيت ما خصص لي من سلاح وهو مسدس لم افتحه ولم أعرف كيف يطلق النار ولا أفكر حتى من باب الفضول الاطلاع عليه، اعطيتني إلى أحد رفاهي، وحين

وحق حين يتم اللجوء إلى العنف، اضطرراً، كما سترد الإشارة إليه، فإن فريضة اللاعناف ستبقى هي الأساس، ولذلك فإن ضرورات استخدام العنف لا تلغي تلك الفريضة، التي ينبغي أن تظل بوصفها هادئة، ففيها التعبير الحقيقي عن إنسانية الإنسان وميله، بل وسعيه باتجاه أنسنة سلوكه وتحضره ومدنيته وبالتالي تحقيق إنسانيته.

العنف والأيدولوجيا

حاولت الأيدولوجيات التي عملنا تحت لوائها أن تعقلن العنف وتشرعن القضاء على الخصم، باسم "الشرعية"، التي اكتسب عنوان مصالح الطبقة العاملة في الصراع الشيوعي، وذلك بتأكيد استمرار الصراع الطبقي الذي هو في الغالب يتحول إلى صراع عنفي لأنه صراع تناحري الغائي، وفي الفكر القومي - البعني إلى مصالح الحزب والثورة وتحريك فلسطين، حتى لو تطلب الأمر إلغاء الآخر بالعنف، طالما يكمن الهدف في "المصلحة القومية"، أما بالنسبة للإسلاميين فمصالح "الأمة الإسلامية" في الفكر الإسلامي، هي الأساس.

وحسب الفقه الشيعي فالمعركة والقتال يمكن أن يستمر حتى ظهور "المهدي المنتظر"، أي أنه سيكون دائماً وسرمدياً، وحسب الفقه السني بسط إرادة الإسلام ونشر دعوته في مواجهة الكفر والضلال إلى يوم الدين، وقد بلورت داعش وأخواتها ذلك بالجهاد متعززة على حجج ماضوية لا يجمعها جامع مع تعاليم الإسلام السمحاء، وأقصد به روحه ومقاصده، ناهيك عن لغة العصر.

وحق حين يتم اللجوء إلى العنف، اضطرراً، كما سترد الإشارة إليه، فإن فريضة اللاعناف ستبقى هي الأساس، ولذلك فإن ضرورات استخدام العنف لا تلغي تلك الفريضة، التي ينبغي أن تظل بوصفها هادئة، ففيها التعبير الحقيقي عن إنسانية الإنسان وميله، بل وسعيه باتجاه أنسنة سلوكه وتحضره ومدنيته وبالتالي تحقيق إنسانيته.

العنف والأيدولوجيا

حاولت الأيدولوجيات التي عملنا تحت لوائها أن تعقلن العنف وتشرعن القضاء على الخصم، باسم "الشرعية"، التي اكتسب عنوان مصالح الطبقة العاملة في الصراع الشيوعي، وذلك بتأكيد استمرار الصراع الطبقي الذي هو في الغالب يتحول إلى صراع عنفي لأنه صراع تناحري الغائي، وفي الفكر القومي - البعني إلى مصالح الحزب والثورة وتحريك فلسطين، حتى لو تطلب الأمر إلغاء الآخر بالعنف، طالما يكمن الهدف في "المصلحة القومية"، أما بالنسبة للإسلاميين فمصالح "الأمة الإسلامية" في الفكر الإسلامي، هي الأساس.

وحسب الفقه الشيعي فالمعركة والقتال يمكن أن يستمر حتى ظهور "المهدي المنتظر"، أي أنه سيكون دائماً وسرمدياً، وحسب الفقه السني بسط إرادة الإسلام ونشر دعوته في مواجهة الكفر والضلال إلى يوم الدين، وقد بلورت داعش وأخواتها ذلك بالجهاد متعززة على حجج ماضوية لا يجمعها جامع مع تعاليم الإسلام السمحاء، وأقصد به روحه ومقاصده، ناهيك عن لغة العصر.

وحق حين يتم اللجوء إلى العنف، اضطرراً، كما سترد الإشارة إليه، فإن فريضة اللاعناف ستبقى هي الأساس، ولذلك فإن ضرورات استخدام العنف لا تلغي تلك الفريضة، التي ينبغي أن تظل بوصفها هادئة، ففيها التعبير الحقيقي عن إنسانية الإنسان وميله، بل وسعيه باتجاه أنسنة سلوكه وتحضره ومدنيته وبالتالي تحقيق إنسانيته.

العنف والأيدولوجيا

حاولت الأيدولوجيات التي عملنا تحت لوائها أن تعقلن العنف وتشرعن القضاء على الخصم، باسم "الشرعية"، التي اكتسب عنوان مصالح الطبقة العاملة في الصراع الشيوعي، وذلك بتأكيد استمرار الصراع الطبقي الذي هو في الغالب يتحول إلى صراع عنفي لأنه صراع تناحري الغائي، وفي الفكر القومي - البعني إلى مصالح الحزب والثورة وتحريك فلسطين، حتى لو تطلب الأمر إلغاء الآخر بالعنف، طالما يكمن الهدف في "المصلحة القومية"، أما بالنسبة للإسلاميين فمصالح "الأمة الإسلامية" في الفكر الإسلامي، هي الأساس.

وحسب الفقه الشيعي فالمعركة والقتال يمكن أن يستمر حتى ظهور "المهدي المنتظر"، أي أنه سيكون دائماً وسرمدياً، وحسب الفقه السني بسط إرادة الإسلام ونشر دعوته في مواجهة الكفر والضلال إلى يوم الدين، وقد بلورت داعش وأخواتها ذلك بالجهاد متعززة على حجج ماضوية لا يجمعها جامع مع تعاليم الإسلام السمحاء، وأقصد به روحه ومقاصده، ناهيك عن لغة العصر.

دعوات لا عنفية

وبسبب موجة العنف وما انتجته لم يكن الخيل شديداً لدى القوى السياسية، لاسيما في المانعة إلى استخدامه، خصوصاً بتجديد الحلول العسكرية للمسألة الكردية، طرحت بعض المقترحات والأطر وحاش التي تدعو إلى المفاوضات والحوار وقد أدى الشخصية الوطنية الكبيرة عزيز شريف دوراً في تليين فتاعسات الحكومة والحركة الكردية المسلحة، باتجاه حل سلمية يرضي الطرفين ويضع البلاد على طريق التنمية وكان رسولاً أميناً بين الرئيس أحمد حسن البكر والرئيس العراقي مصطفى البارزاني، حتى تم التوصل إلى توقيع بيان 11 آذار (مارس) العام 1970 لحل المشكلة الكردية باتجاه الحكم الذاتي، الذي مثل خطوة إيجابية، بل هامة ومنقذة آنذاك.

لكن تدهور الأوضاع وضعف الثقة بين الطرفين وضع حدثيات هذا الحل على المحك وأندلقت القتال مجدداً في العام 1974، واضطرت قيادة الحركة إلى اللجوء إلى إيران وذلك بعد توقيع اتفاقية 6 آذار (مارس) 1975. وكانت نتائج تلك المعارك وخيمة، حيث سقط فيها نحو 60 ألف ضحية وتم تدمير منشآت ومرافق حيوية وخسارة ملايين الدولارات، ناهيك عن التخلف الخارجي التي أدت دوراً مؤثراً في التشدد على الحركة الكردية، وهو ما انتقده لاحقاً الزعيم الكردي الملا مصطفى البارزاني.

ومن جهة أخرى كانت السلطة تتزاد تشدداً وتضييقاً على الحركة الكردية، على الرغم من طرحها مشروع "الحكم الذاتي"، لكن ذلك لم يمنع من اتخاذها إجراءات تعسفية مشددة، وهكذا انقطع حبل اللود والثقة في مسيرة الحل السلمي وازدادت اللوحة قتامة بالاندلاع القتال وما بعده، ولم أجد مبرراً سقفاً حينها لانخراط الشيويعيين في القتال مع الحكومة ضد الأكراد، خصوصاً ما أعقب ذلك من أعمال عنف ونهجير وقسوة لم يكن لها مبرر على الإطلاق.

العنف وضعف وليس قوة

كنت أنظر إلى العنف كاستمرار باعتبار نقطة ضعف وليس مصدر قوة، والقوة غير العنف، بل هي ما أخذت عبر عنه بالتدرج بواسطة اللاعناف، بسواء أسميته أو لم أسميه، خصوصاً في الدور الذي يمكن أن تلعبه منظمات المجتمع في أن للتأثير على أصحاب القرار، لأنها تتمثل في إرادة بالوجهة والمقاومة والمجاهبة بوسائل لا عنفية، وقد مثل العنفا بالنسبة لي باستمرار ظاهرة غير شرعية أو أن شرعيتها ناقصة أو لم تكتمل بعض النظر عن مسوغاته.

وكانت تلك الإشكالية محط تساؤل مستمر بيني وبين نفسي، لاسيما بين ما هو أخلاقي وبين ما هو سياسي أو فكري إضافة إلى ما هو قانوني، على الرغم من الشعارات ذات الرنين العالي والمبررات الكثيرة، وكنت أجد حرجاً أخلاقياً مع نفسي حين يتم تبرير القتل وما سواه من وسائل إرغام.